العصبية رابطة سوسيو- سياسية (دراسة من خلال النصوص الخلدونية)

كرابية أمينة

أستاذة مساعدة بقسم علم الاجتماع، جامعة عبد الحميد ابن باديس بمستغانم

تمهيد

إعتمد **ابن خلدون** في بحوثه،على ملاحظاته للظواهر الاجتماع، في الشعوب التي أتيح له الاحتكاك بها والحياة بين أهلها، فتعقب هذه الظواهر عبر التاريخ، في العصور السابقة لعصره،و قام بدراستها،عن طريق الملاحظة، وجمع المواد الأولية،ليصل إلى الغرض الذي قصد إليه هذا العلم الجديد، وهو علم العمران البشري،والاجتماع الإنساني. وباعتبارنا باحثين في علم الاجتماع، فإن النظرية السياسية، تبدوا شديدة البروز في الفكر الخلدوني،الذي شمل الملك والدولة ،وأسباب نشوءها وتطورها، ثم اضمحلالها وسقوطها خاصة في الدول الإسلامية التي عايشها ليستنتج أن أسباب قيام هذه الدولة وسقوطها يعود إلى ظاهرة أساسية تسمى بالعصبيةوعند دراستي لهذه الظاهرة السوسيو سياسية من خلال النصوص الخلدونية في المقدمة وجدتها عبارة عن علاقات وروابط اجتماعية دموية قرابية، هذا ما أكد على أنها ظاهرة اجتماعية وسياسية في نفس الوقتأي أن ظاهرة العصبية تعتبر **رابطة اجتماعية ورابطة سياسية** ويرى **صاحب المقدمة**، أن لهذه الرابطة،دورا كبيرا في نشوء الدولة وتأسيس الملك، في مرحلة من مراحلها التطورية، لاعتبارها ظاهرة ديناميكية تطورية، تمر بمراحل من النشأة في القبيلة،والتطور في ظل المجتمع البدوي، إلى مرحلة ارتدادية، في المجتمع الحضري، وهذا ما نريد توضيحه في دراستنا هذه، **فالرابطة العصبية** كما قلنا يعتبرها **ابن خلدون** المحور الأساسي، في نظريته الاجتماعية، فهي بمثابة المحرك الطبيعي الذي يؤدي إلى تطور المجتمع،و تغيره فهي تقوى بقوة والتحام أفرادها، ذوي النسب الواحد، كما اهتم ابن خلدون بالعصبية كقوة سياسية،تؤسس الملك، ولابد قبل أن ندرس فاعليتها السياسة، أن نتطرق إليها كظاهرة اجتماعية، نتعرض لظروف نشأتها ودورها في الحياة القبلية .

أولا : مفهوم العصبية كرابطة اجتماعية

1-تعريف الرابطة الاجتماعية

يعتبر موضوع الرابطة الاجتماعية، من أهم المواضيع التي يهتم بها علم الاجتماع الحديث إلا أنها قديمة النشأة، ظهر هذا المصطلح في القرن 19 على يد مجموعة من علماء الاجتماع، وربما كل علماء الاجتماع، تطرقوا لهذا المفهوم ولكن ليس بنفس الإسم، إلا أن المضمون واحد، وهناك من تعرض له من خلال العصبية والعلاقات

لقبلية **كابن خلدون** والعلاقات الاجتماعية أو الإنسانية مثل **ماكس فيبر**، ومنهم من تحدث عنه، من خلال تقسيم العمل والتضامن الاجتماعي، مثل **دوركايم** والإرادة الاجتماعية والمجتمع المحلي والعام، لدى **تونيز** وكذلك من خلال الطبقات الاجتماعية عند **ماركس** والعقد الاجتماعي عند **هوبز ولوك**، وكذا علماء الأنتروبولوجيا الإجتماعية من مثل **ميرودوك** وغيرهم، عندما درسوا المجتمعات البدائية، والعلاقات القرابية والأسرة.وتعرف الرابطة الاجتماعية في علم الاجتماع على أنها مجموعة من العلاقات بين الأفراد المنتمين إلى فئة اجتماعية أو أنها مجموعة من القواعد الاجتماعية بين الأفراد أو الجماعات الاجتماعية،أما في علم النفس الاجتماعي، فإنه يفضل استخدام مصطلح أو مفهوم **le lien interpersonnel الاتصال بين الأفراد**ويقصد به الاتصال الذي يبني العلاقة بين الاشخاص. كما نجد الرابطة الاجتماعية عند **جان جاك روسو** في كتابه **العقد الاجتماعي** الذي تضمن فصل بعنوان فكرة خاطئة للرباط الاجتماعي، ونجده عند **دوركهايم**، بمصطلح "التضامن الاجتماعي"[1] أماإذا لجأنا إلى معجم علم الإجتماع نجد أن الرابطة الاجتماعية هي العلاقة التي تربط أفراد المجتمع وتُشكل منطقه وفلسفته كما تختلف **طبيعتها** من مجتمع لآخر وقد كانت هذه العلاقة محل اختلاف الفلاسفة والمدارس الفكرية والأنساق الأيديولوجية من حيث تكييفها في الواقع وتصورها كما تختلف من مجتمع لآخر حسب رسالة كل أمة ومنهج كل كتاب وطبيعة

القوم ومحيطهم الحضاري[2]، كما تعني أيضا في المعجم اللاتيني الشيء الذي يبحث على الربط أي يربط ويجمع، والروابط الاجتماعية هي تلك الاشكال للعلاقات التي تربط الفرد بالجماعات الاجتماعية والمجتمع، والتي تسمح له بالتنشئة والاندماج داخل المجتمع؛ وأخذ منه عناصر –مقومات– هويته[3] ورغم هذا لم تعرف الروابط الاجتماعية وجودها،واستعمالها كمصطلح، إلا في أوائل القرن التاسع عشر، أصبحت كصبغة للعلاقات الاجتماعية،والنظام الاجتماعي **Ordresocial**، أو السلام الاجتماعي **Pais social**، أي لا يؤذي شخص غيره داخل النظام الاجتماعي، فظهر أبسط مفهوم **للروابط الاجتماعية**، على يد **جورج بوناك** في القرن التاسع عشر، على أن شكل الرابطة الاجتماعية هو عبارة عن تجمع أولي لعناصر مختلفة ولعلاقة فردية.[4]فالأفراد يميلون منذ أن ظهروا على وجه الأرض إلى التجمع بأفراد نوعهم وقد عبر **أرسطو**، عن هذا بقوله الإنسان كائن اجتماعي، و**ابن خلدون** الإنسان مدني طبعه وبحكم هذا الميل عند الإنسان، نجده لا يعيش في العادة بمفرده، وإنما مع غيره من بني جنسه، وقد كان يحدث هذا في أول الأمر بطريقة تلقائية، وبدون أي وعي أو قصد، فظهرت بذلك أبسط أشكال التجمع والروابط الاجتماعية، وهي تلك التي تتميز بمجرد وجود الناس قريبين من بعضهم، في مساحة معينة، دون أن يُميّزهم أي شيء سوى هذا القرب من بعضهم، حيث لم يكن هذا الأخير يرتبط بأي نوع من التنظيم أو التأثير المتبادل، أو أية علاقة من نوع آخر. بدأت تظهر التجمعات والحشود وأولى الروابط الاجتماعية، في الأسرة فسُميت بالروابط الطبيعية، ثم ظهرت علاقات بين الأسر فيما بينهم، وسُميت بالروابط الأسرية أو الترابط الأسري، بحُكم عامل **القرابة** والمصاهرة فبدأ التفاعل بين الأفراد في المجتمع، والشعور بوحدة التركيبة ووحدة المصالح والنشاط،هذا ما يُسمي بالروابط الاجتماعية.[5]كما نجد من علماء الاجتماع من لا يُعرف **الرابطة الاجتماعية**، حتى يُدمج مفهوم المجتمع إلى مصطلح الرباط الاجتماعي، ومنهم **جنزبرج** الذي يرى أن المجتمع هو« تعبير عن كل صلة الإنسان بالإنسان، سواء كانت هذه الصلة مباشرة أم غير مباشرة، منظمة أم غير منظمة، عن وعي أو بدون وعي، تتميز بالتعاون أم تميز بالعداء.»[6]،ويُعرف الجماعة على أنها « مجموعة من الناس، بينهم اتصال و**ارتباط اجتماعي** منظم، ولهم تركيب معلوم.»[7] قاصدا بذلك أن الرباط الاجتماعي يتشكل تلقائيا بين الأفراد نظرا للحاجة الاجتماعية التي يفرضها المجتمع. كما يعرف **جورج بوناك** أيضا المجتمع على «أنه عبارة عن مجموعة من الناس عاشوا، وعملوا معا، فترة من الزمن بلغت من الطول ما مكنهم من تنظيم أنفسهم، واعتبار أنفسهم وحدة اجتماعية لها حدودها المعروفة».[8] من خلال هذه التعاريف، يتضح لنا، أن الأفراد يمتازون داخل المجتمع بالاتصال والتفاعل والترابط فيما بينهم، فبعد تعريف **جنزبرج** للمجتمع، يستنتج تعريفا للرابطة الاجتماعية على أنها «بمجموعة من الناس يحتلون بقعة مُعينة من الأرض، ويربطهم معا نظام من القواعد التي تُنظم حياتهم، وتُحدد صلاتهم والرابطة الاجتماعية قد توجد داخل المجتمع الكلي، أو المجتمع المحلي وقد تكون هي المجتمع نفسه، في بعض الأحيان إذا شعر فيه أفراده بالترابط والتماسك، لأن الرابطة الاجتماعية يتحد فيها الناس لأداء وظيفة ما أو عدة وظائف»[9].

وإذا ذهبنا إلى معجم **الإثنولوجيا والأنتروبولوجيا**، نجد أن كلمة الرابطة، تم اشتقاقها في القرن التاسع عشر، من الكلمة الانجليزية **Band**،التي تعني الرباط أو الشريط أي الشيء الذي يربط الأشياء ببعضها[10]،فأولى الروابط البشرية تبدأ بعلاقة الأم وأبناءها، وتسمى برابطة الأمومة، وهي أقوى الروابط البشرية والطبيعية، لأنها فطرية في الإنسان، ثم يخرج الفرد إلى المجتمع بعد الأسرة،وتظهر الروابط الاجتماعية، وهي التي تشير إلى العناصر الهيكلية المتواجدة في المجتمع، كالنشاط الاقتصادي والاتحادات والنقابات، والتي من وظيفتها الربط بين وحدات المجتمع، كالزواج الذي يمثل أصل الروابط الاجتماعية بمختلف أشكالها،لأنه يجمع بين أفراد المجتمع ،من أجل تكوين الأسرة التي تعد النواة الأساسية في المجتمع، والتي تظهر فيها روابط الأخوة والأمومة وروابط القرابة، وكلها تسمى روابط اجتماعية.هذا ما يؤكده تعريف **لووي**، عالم اجتماعي وأنثروبولوجي، **في كتابه المجتمع البدائي 1920**«الرابطة الاجتماعية، هي جماعة داخل المجتمع الكلي، فهي لاتقوم على القرابة فقط، ولا تخضع للرقابة الاجتماعية، لأنها تحدث تلقائيا بين أفراد الجماعة، كروابط الصداقة، فهم ليسوا بالضرورة أقارب، ولكن يمكن أن نعتبر أن أساس الروابط الاجتماعية، هي **القرابة** وبعدها تأتي الروابط بين الأفراد الغير أقارب»[11]، وهذا ما ذكره **ج بيلو**1907 في كتابه **حياة الجماعة** « أن الصداقة يمكن أن نعتبرها أساس لنزوع البشر نحو الترابط، ولكن القرابة هي أصل الترابط الاجتماعي، فأشكال الترابط منتمية إلى أشكال النزوع، إلى العيش الاجتماعي، فهي تُحيّش العلاقات الاجتماعية باتجاه نشاط اجتماعي، محدد الهدف بصورة أو بأخرى»[12]وهنا نلاحظ أن أهم الروابط الاجتماعية هي رابطة القرابة وهذا ما نجده في النصوص الخلدونية حول رابطة العصبية.كما تؤكد

بعض المدارس السوسيولوجية المعاصرة كمدرسة **مورينو**، في الحديث عن الفئات الاجتماعية، داخل شبكة العلاقات الاجتماعية، على مبدأ الذرات الاجتماعية، (في علم الاجتماع الذرة الاجتماعية، هي الفرد، في علاقته مع الآخرين)أي أن الأفراد ليسوا هم عناصر التحليل، الذي يعتمده علم الاجتماع،لكن هذه العناصر عندما تشكل علاقات الاجتماعية، بين الأفراد أو بين الجماعات، فوجود مجموعة من الأفراد،لا يكفي لأن تكون جماعة، كما أن كومة من الحجارة لا تشكل بيتا فالجماعة كواقعة اجتماعية لا تظهر إلا حيث يرتبط الناس، بعلاقات متبادلة[13].ويقصد **مورينو** بذلك هو أن جماعة الأفراد لا تشكل مجتمعا بالمعنى السوسيولوجي وليس اللغوي،إلا إذا كانت هناك علاقة بين الأفراد ليتشكل النسيج الاجتماعي، مثلها مثل كومة الحجارة التي لا تشكل لنا جدارا إلا إذا كانت بين الحجرة والأخرى إسمنت يشدها والاسمنت هنا هو العلاقة الاجتماعية بين الأفراد أو الرباط الاجتماعي الذي يربطهم المتمثل في رباط القرابة أو الدين أو المواطنة وغيرها من الروابط الاجتماعية الأخرى.ويرى **بيار بورديو Pierre Bourdieu** الروابط الاجتماعية من خلال إدماجها بمفهوم رأس المال الاجتماعي، حيث يعرفه بأنه مجموع الموارد الحالية أو الكامنة المتعلقة بحيازة شبكة مستديمة من العلاقات مؤسسة إلى حد ما، وبعبارة أخرى هو الانتماء إلى مجموعة من الفاعلين المتحدين بروابط مستمرة ومفيدة قائمة على تبادلات مادية ورمزية، وأن الفائدة المنشودة من الانتماء إلى جماعة هي أساس التضامن، كما تعد الأسرة هي الشكل البدائي لرأس المال الاجتماعي.[14] ويقصد من هذا التعريف هو أن الغاية من الروابط الاجتماعية تحقيق التضامن الاجتماعي، وأن رأس المال الاجتماعي هو تلك الشبكة من العلاقات الاجتماعية بين الأفراد. زيادة على هذا فإن **الرابطة الاجتماعية** ترمز، لمجموع **العلاقات** التي تربط الأفراد، لتشكل أحزاب من نفس الجماعة، والتي تنشأ قواعد اجتماعية بين الأفراد أو الجماعات الاجتماعية المختلفة، ولفهم الروابط الاجتماعية أكثر، يجب أن نكشف عن طبيعة العناصر المكونة لهذه الروابط، وعلى أي شيء يتوقف تطورها أو تخلفها في التجمع البشري ككل، وتتمثل هذه العناصر المكونة للروابط الاجتماعية في الاتصال المكاني، أولا لأنه يساعد على الترابط، فمن خلال علاقة الجوار وما يستتبعها من رؤية متبادلة بين الأفراد، يتعاونون عند الحاجة، ثم الاتصال النفسي، ويساعد على إنشاء علاقات وطيدة بين الناس خاصة، وأن بعض العلاقات لا يمكن أن تستمر بدون هذا الاتصال، كعلاقات الصداقة مثلا. وبعد هذان الاتصالان اللذان يمهدان لنشوء الاتصال الاجتماعي يتحول الاتصال النفسي، إلى اتصال اجتماعي، لأنه إذا التقيا (أ) و(ب) وبدآ يؤثران في بعضهما البعض، حتى يتوصلا إلى تبادل، فالاتصال الاجتماعي هو تفاعل بين هؤلاء الأفراد.[15]ولهذا نجد **للتفاعل** الاجتماعي دور كبير في تشكل الروابط الاجتماعية وبدونه لا يحدث أي ترابط وأي علاقة اجتماعية فهو اذن شرط أساسي لوجود الرابطة الاجتماعية بكل أنواعها.

نستنتج إذن من هذا المفهوم أن الرابطة الاجتماعية،تنشأ بين الأفراد داخل المجتمع، من خلال عناصر مكونة لها، والمتمثلة في اتصال مكاني واتصال نفسي، أي تجاوب الأفراد مع بعضهم البعض، مما يؤدي أو يساعد على اتصال اجتماعي، يُكون رابطة اجتماعية تنشأ أولا بين الأقارب، أي تتولد من الأسرة لتتوسع نحو الأقارب البعيدين إلى الأصدقاء والجيران، الغير أقارب وكل هذا يحدث داخل ما يسمى بالمجتمع .

2- تعريف الرابطة العصبية

عندما نقول كلمة عصبية، يذهب تفكيرنا مباشرة إلى **ابن خلدون**، الذي يُعتبر أول من أعطى هذا المصطلح، دلالته السوسيولوجية ودوره السياسي، فهو يعتبر فكرة العصبية، بمثابة المحور الذي تدور حوله معظم البحوث الاجتماعية والسياسية، رغم أنها شائعة بين العرب، قبل مجيء الإسلام فكانت تعني، تبني شخص لقضية ذويه، أي مساندة الفرد العمياء لجماعته، دون أن يأبه للعدالة وموقفها. غير أنه لم تكن لها قط قبل **ابن خلدون** قيمة تفسيرية، ولا دلالة سياسية واجتماعية.

فلم تكن الذهنية البدوية لعرب الجاهلية، لتتصور الكائن الإنساني، إلا داخل فئة جماعية قطعية، ويذوب الفرد في القبيلة، فلا وجود لشخصية خاصة متفردة، إذ الوحدة القبلية لا تُعرف بروابط التضامن، ولا بروابط الود خارج الوحدة التي تتألف من أفراد نفس العصبية.[16] كما تُعرّف العصبية في **لسان العرب** «على أنها مشتقة من لفظ عصب الذي يعني حرفيا ربط، تجمع، شدّ أحاط، اجتمع، فعصبية الرجل، بنوه وقرابته وكل شيء استدار به، نقول عصّب الرأس بمعنى ربطه، وهي تدل على رابطة دموية وتلاحم الأرحام، منذ القديم أي قبل مجيء الإسلام »[17].وبعد الإسلام اندثرت العصبية بعنف وذهبت أثارها السيئة، فدعا المسلمون ليتخلصوا من أثارها القبلية المتخلفة، إلا أن **ابن**

خلدون اقترب من مفهوم العصبية، لأجل منطق نظرياته ومعقوليتها، من وجهة نظر أخرى[18]، ونجده يستعمل مفهوم العصبية مع مصطلح الالتحام والنسب، فيقول:«في أن العصبية إنما تكون من الالتحام بالنسب أو ما في معناه»[19] ،ويقصد بما في معناه أيُ كل مصطلح يرادف معنى الالتحام، كالتماسك والترابط والتعاضد وغيرها. كما أعطى معظم الباحثين الذين اهتموا بالفكر الخلدوني، والدراسات الخلدونية للعصبية، مفهوم التماسك والترابط، فهم يرون أنها عبارة عن رابطة اجتماعية، تمتاز بالتماسك بين أفراد النسب الواحد، وتظهر في القبيلة(المجتمع البدوي) بصورة واضحة، وأبرز هؤلاء الدارسين **محمد عابد الجابري**،الذي يُعرف العصبية في كتابه «**العصبية والدولة**» على أنها «رابطة اجتماعية سيكولوجية، شعورية ولا شعورية، تربط أفراد جماعة قائمة على القرابة المادية والمعنوية، ربطا مستمرا يبرز، عند ما يكون هناك خطر، يهدد أولئك الأفراد كأفراد أو كجماعة»[20]. ويعرفها **ساطعالحصري** «تدل على تفكير فاحص ونافذ، تفكير معمق في درس الحوادث الاجتماعية، وفي تحليل الوقائع التاريخية، وهي قادرة على إظهار أوثق أنواع الروابط الاجتماعية وتعيين أهم أشكال الترابط لاجتماعي».[21] كما يعرفها **عبد الرزاق المكي** –باحث اجتماعي مصري في الفكر الخلدوني –«العصبية كلمة تتأسس اجتماعيا، بصلة الاشتقاق إلى كلمة العصب، بمعنى الشد والربط والأصل في معناها أنها الرابطة المعنوية،التي تربط بين ذوي القربى والرحم، فالعصبية مرتبطة بالجماعة، إذن هي رابطة اجتماعية»[22].ويرى **الصغير بن عمار** في كتابه «**الفكر العلمي عند ابن خلدون**» «أن صاحب المقدمة، لم يستعمل هذه الكلمة بمعناها اللغوي الظاهر، ولا بالمعنى العرقي، بل استعملها بمعنى أوسع من ذلك بكثير، إنه أدخل في نطاق مفهوم العصبية الروابط الاجتماعية والظواهر التكاتفية والتناصرية، وبذلك أصبحت العصبية مفهوما اجتماعيا، Concept sociologique تدخل في المجتمعات وسيرها»[23].أما إذا ذهبنا إلى **معجم علم الاجتماع المعاصر**، يُعرّف العصبية «على أنها مجموعة أو مجتمع محلي، نشأ على أساس ترابط عائلات، وهي تلتقي مع مفهوم الرابطة الاجتماعية بالانجليزية، في كلمة Band «بمعنى الربط والشد»[24]،هذا ما يوضح لنا أن العصبية لها علاقة كبيرة بالرابطة الاجتماعية أو بعبارة أدق، العصبية رابطة اجتماعية تقوم على النسب والقرابة. كما يرى **محمد عزيز لحبابي**، أن العصبية في النسق الخلدوني هي، العلاقة التي تربط أهدافا ومشاعر مشتركة، عند كل من تجمعهم لحمة الدم أو الولاء، فهي كما توجد في البوادي توجد كذلك، داخل المدن، لأنها تستجيب لميل طبيعي يحمل الناس على أن يلتحموا بعضهم البعض، وأن يتكتلوا في فئات وإن لم ينتموا إلى نفس الأسرة، على أن هذا الالتحام يظل أقل متانة من روابط الدم، وبالتالي فالعصبية المتولدة عن هذا الميل ليست سوى جزء مما يتولد عن القرابة المباشرة.[25] ولهذا يبدو واضحا أن العصبية تجمع كل من لديهم لحمة الدم والقرابة،وذلك لميل طبيعي في البشر إلى الاجتماع. ويرى **إيف لاكوست** أن العصبية عند **ابن خلدون**، ليست شكلا من أشكال التعاضد فحسب، بل هي نوع من أنواع العلاقات الاجتماعية ،أو الروابط الاجتماعية،[26]كما يمكننا أن نضيف بعض مرادفات العصبية، التي قدمها شُراح **ابن خلدون**، ومن بين هذه التفسيرات في اللغات الأجنبية، نجد البارون **دوسلان** الذي ترجم كلمة عصبية بتعبير Esprit de corps، الذي يعني روح التضامن، يظهر بين الأشخاص المنتسبين إلى المهنة الواحدة، واقترح **غوتيه** استبدال التعبير السابق نظرا لقصوره، عن مقاصد **ابن خلدون**، بتعبير آخر هو Esprit de clan الذي يدل على روح التضامن داخل العشيرة أو القبيلة، الذي يظهر بين أفراد القبيلة الواحدة أو الطائفة الواحدة، ومن الاستعمالات الأخرى لمعنى العصبية، التماسك Cohésionوالولاء للجماعة Group loyalو الشعور الجمعي Group feeling[27]وتعكس هذه المرادفات معان مثل الوفاء للجماعة التماسك الداخلي للجماعة فكل المرادفات جاءت تدل عن التضامن، الترابط، التماسك الجماعي.أما التعاريف فأغلبها تشرح لنا العصبية من الجانب الاجتماعي، ماعدا تعريف **محمد عابد الجابري** الذي يربط بين الجانبين الاجتماعي والسياسي، لهذا نود استعمال مصطلح الرابطة العصبية للدلالة ربما على المعنى الحقيقي للعصبية كمصطلح خلدوني معاصر.فإذا تأملنا النصوص الخلدونية التي تتحدث عن العصبية سوف نجد موضوع القرابة من أهم المواضيع التي ترتبط بالعصبية، ارتباطا كبيرا. فلا يمكن أن تعتبر مجموعة ما عصبية، إلا إذا كان أفرادها ينتمون لنفس الأصل، وذلك حسب تعريف **ابن خلدون** لها وربطها بصلة الرحم والنسب،وهنا نجد أنفسنتا أمام العصبية كظاهرة إجتماعية لارتباطها برباط القرابة.

ثانيا: العصبية رابطة اجتماعية أو العصبية قوة اجتماعية

1– العصبية والرابطة القرابية

يعتبر موضوع القرابة من أهم المواضيع التي ترتبط بالعصبية، ارتباطا كبيرا لأنه كما قلنا قوام العصبية هو القرابة والنسب وصلة الرحم. فلا يمكن أن تعتبر مجموعة ما عصبية، إلا إذا كان أفرادها ينتمون لنفس الأصل، وذلك حسب تعريف علماء الاجتماع والانتروبولوجيا لها، وربطها بالعصبية كما فعل **ابن خلدون**. وإذا ذهبنا إلى **معجم علم الاجتماع** نجد مفهوم القرابة يرمز،إلى مجموع الأفراد المرتبطين بروابط البُنوة (الأبوة،الأبناء)،الأشقاء (أبناء،بنات) وروابط الزواج و المصاهرة (زوج وزوجة) يشكل مجموع يسير على قواعد متغيرة طبقا لثقافات، هذا التشكل الأولي للتنظيم الحياة الجماعية يتقوى بالأسرة»[28].وفي معجم **الانتروبولوجي والاثنولوجي** تشكل القرابة ميدانا متميزا، من ميادين التطور النظري للأنثروبولوجيا، وفي الواقع فإن فهم ظواهر قرابة العصب والنسب، تبعا لعدد من المبادئ الأساسية، أي المنهج الذي أطلقه **مورغان** عام 1871، قد استتبع حرصا على دقة العرض، يعتبر بالنسبة للعديدين، البرهان الأساسي على الفهم العلمي، للانتروبولوجيا،إن كل المجتمعات باعترافها بالقرابة الثنائية، القائمة على الأفراد وتحقيق الترابط الشرعي فيما بينهم، تقر بقرابة **العصب والنسب**، إلا أن بعض هذه المجتمعات فقط، تدرج البنوة أو المصاهرة أي وجود مجموعات أو فئات من أقرباء العصب، المنحدرين من مجموعة أشخاص، هم من سلالة جد واحد، من جهة ومن جهة أخرى، وجود صلة قرابة تربط مجموعات أو فئات من الأهل برابطة المصاهرة» [29]. وأدخل **مورغان** مفهوم نظام القرابة في كتابه « **أنظمة قرابة العصب والنسب في العائلة البشرية 1871**» ابتكر فيه طريقة للتحليل، تقوم على وضع استبيان يتضمن تعابير القرابة الواردة على شكل نظام، ووزع منه 139 نسخة وارتكز **مورغان** على مصطلح **قرابة الدم العضوية**،و**قرابة الدم الاجتماعية**،فقرابة الدم العضوية هم الأفراد الذين ينتمون إلى جد واحد، وقرابة الدم الاجتماعية تكون بالمصاهرة والزواج[30].إذن الأفراد المكونين للعصبية ينحدرون من نفس النسب والمصاهرة وينتمون إلى أسرة أو عائلة واحدة. هذا ما يسميه علماء الاجتماع والأنتروبولوجيا بالعلاقات القرابية الدموية، أما العلاقات القرابية الاجتماعية، وهي التي تتكون بالنسب البعيد والحلف والولاء،كما شرح ذلك **ابن خلدون** في نظريته، وتبدوا للقرابة علاقة كبيرة بالعصبية، ذلك لاعتبار صاحب المقدمة، أن العصبية مصدرا لتأسيس السلطة، وهذا المصدر يرتكز في تشكُله وتكوينه بالعلاقات القرابية وروابط الدم،أو العلاقات الدينامية، وبالتالي فإن لهذه العلاقات دورا في تأسيس السلطة، هذا ما كان يفرضه الواقع الاجتماعي، التي أُجريت فيه البحوث الأنتروبولوجية، حول السلطة والقرابة، فهذه المجتمعات تجعل القرابة مصدرا لكل سلطة بما فيها السلطة السياسية، وتترك مفهوم الوطن، مكانه لمفهوم النسب،حيث يدين الفرد لقبيلته التي هي حصيلة النسب، وحيث تعلوا العلاقات القرابية فوق كل علاقة[31]

2-العصبية والرابطة القبلية

ولكي يوضح **ابن خلدون** أن العصبية رابطة اجتماعية يربطها بالقبيلة .فظاهرة العصبية هذه الجماعة القرابية حسبه لا تولد إلا في القبيلة وفي المجتمع البدوي،لقوله:« في أن سكنى البدو لا يكون إلا للقبائلأهل العصبية»[32]**فالقبيلة** هي ايضا ظاهرة اجتماعية، ضاربة في أعماق التاريخ العربي في المغرب والمشرق على حد سواء، كما اعتبرها **ابن خلدون** التُربة الخصبة، التي تنمو فيها العصبية، وأنها الأصل في المجتمع البدوي وهنا يظهر الارتباط أو العلاقة بن العصبية والقبيلة والمجتمع البدوي بصفة عامة.تعرف القبيلة في **معجم علم الاجتماع** على«أنها عددا من الناس ينتمون إلى أصل مُشترك، كما يشتركون في ملكية منطقة من الأرض، وتقوم بينهم **صلات القرابة** ويتكلمون لغة واحدة ولهجة واحدة، وتنقسم القبيلة في العادة إلى عدد من العشائر كما تنقسم العشيرة إلى عدد من الجماعات كل جماعة منها عبارة عن عائلة أو عائلتين أو ثلاث» [33]. ويعرفها **بيشلر** «هي الشكل الانقسامي للتنظيم الاجتماعي يتكون من أقسام قاعدية، يُمثل كل منها أسرة ممتدة، في عمق ثلاثة أو أربعة أجيال، وكل قسم قاعدي يلتحم تلقائيا مع قسم آخر كلما شعر بتهديد أو خطر وشيئا فشيئا يمكن أن تتحدد القبيلة بأسرها أو مجموعة قبائل في مجموعة مؤقتة، لمواجهة عدو خارجي»[34]. تمثل القبيلة مكان نشأة العصبية، وهي كبنية تقليدية اجتماعية شأنها في ذلك شأن العصبية، وما يحدد مفهوم القبيلة عن **ابن خلدون**، هو الاجتماع على أساس العلاقات الدموية،وهو الشرط التأسيسي لقيام الجماعة، وإذا ما توفرت القرابة بين أفراد الجماعة، لم تأسس القبيلة،لأنه إذا وجدت جماعة،لا ينتمون إلى قرابة لا نسميهم قبيلة، وذلك لعدم توفر شرط القرابة، وقد يُضاف إلى العلاقات القرابية، في القبيلة بعض الو لاءات والموالي لكن العائلة هي الخلية الأساسية فيها، يتزعمها قائد طبيعي وعادة ما يكون كبير السن لكسب طرق وخبرة سير القبيلة ونظامها. وتظم القبيلة ثلاث أصناف من الأفراد يتقدمها صرحاء النسب، وهم أساس أشراف القبيلة وارستقراطيتها، يتفاوتون في الشرف بتفاوت بيوتهم في الحسب، ثم صنف الموالي

والمصطنعون (اللُصقاء) هم الذين التحقوا بالقبيلة، بواسطة اللجوء أو الحلف من العدو أو ضده، أما صنف العبيد، وهم عادة ما يكونون أسرى الحروب، والغزوات التي ترجع أيضا إلى العلاقات الاقتصادية، وأنواع الصراع الذي يقوم على الرغبة في الحصول على مستوى عيش أفضل. ولهذا نستنتج أن القبيلة عبارة عن، تنظيم اجتماعي، للمجتمعات البدوية وترتكز سلطتها على العصبية، أي ترأسها أسرة حاكمة، على رأسها شيخ القبيلة وسلطته وراثية، فكل فرد في القبيلة له دور يؤديه، تضافرا مع الأفراد الآخرين، وبالعصبية تتمتع القبيلة أو الأسرة من القوة والجاه، اللذان يجعلان من أفرادها جمعا متراص البنيان وقوام العصبية في نظر **ابن خلدون**، الاتصال برابطة النسب والقرابة وما إليها من الرابطة المماثلة، حيث يفقد الفرد في هذا التجمع فرديته، ويتقمص شخصية القبيلة أو الأسرة، التي ينتمي إليها وخاصة في حالة الخطر الخارجي،الذي يُهدد كيان العصبية سواء المادي أو المعنوي.وهنا يمكننا أن نقول أن العصبية قوة اجتماعية من خلال عامل القرابة داخل جو القبيلة.

ثالثا :العصبية ظاهرة سياسية أو العصبية قوة سياسية

1- العصبية والوازع

بعد أن تتكون الرابطة العصبية في العمران البدوي، وتولد في الأسرة القرابية والقبيلة تُصبح **قوة اجتماعية**، من خلال التضامن الأسري في الحياة العادية واليومية، بالعمل وكسب الرزق الضروري للعيش، وفي لحظة من اللحظات قد تتحول هذه الرابطة الاجتماعية إلى **قوة سياسية**، كأن تصبح وازعا ضد العدوان، وأن تُدافع أو تُطالب من أجل السلطة، والوصول الرئاسة والحكم بتأسيس الدولة.يرى **ابن خلدون** أن الوازع عامل أساسي في تحول العصبية إلى قوة سياسية، فماذا يقصد بالوازع وما دوره في السلطة؟ نشير في الوازع إلى تأكيد **ابن خلدون**،على الحاجة الماسة للعصبية، من أجل إقامة السلطة السياسية، سواء داخل جماعة معينة أو في المجتمع ككل، وهذا انطلاقا من نظرته إلى دور العصبية،كأصلح أداة يمكن الاعتماد عليها لفرض **قوة سياسية** مُدافعة، حيث تكون فاعليتها في أوضح صورها،كلما اقتربت من مركز الجماعة أي من الأسرة كناية عن هؤلاء المنحدرين من أب واحد حيث يقتضي الاجتماع الإنساني ضرورة وجود مهيمن ومهيمن عليه، ليضمن هذه العلاقة نزعة الثاني إلى تحقيق انقلاب يحتل به موقعا مرموقا،في السلطة ونزعة الأول إلى تدعيم الهيمنة وضمان التغلب، ولعل هذه الثنائية هي التي أدى بها **ابن خلدون**، لتكون العصبية،في علاقة عضوية مع السلطة،وهي ثنائية الوازع والتغلب والمدافعة والمطالبة.[35] مما جعل المجتمع يحتاج إلى توازن القوى،من خلال فكرة **الوازع** كضرورة من ضرورات الاجتماع، والتعاون لأن الإنسان عدواني بطبعه،واجتماعي بطبعه و**الوازع** هو السلطة التي تُوفق بين الأفراد في المجتمع،وتختلف بحسب الأزمان، إذ تبدأ بسلطة شيوخ القبائل ،لتنتهي بسلطة الدولة القاهرة، يعبر عنها **الجابري** «بأنها سلطة معنوية،في البداية بشيخ القبيلة، ذات منزلة دينية وخبرة ،في الحياة ثم في مرحلة لاحقة، سلطة مادية تظهر في جهاز الدولة ،بوسائل قمعية حديثة، كما يُعرف **الوازع** على أنه السلطة التي تكبح جماع الفرد،وتُعطل غريزته العدوانية»[36].والوازع عند **ابن خلدون** هو الحاكم لقوله«فاحتاجوا من أجل ذلك،إلى الوازع وهو الحاكم عليهم وهو بمقتضى الطبيعة البشرية،الملك القاهر المتحكم».[37]لهذا تحتاج الرابطة العصبية، إلى وازع يحكم أو يرأس هذه الجماعة، رغم أنها تعتبرُ هي الأخرى (أي العصبية)،وازعا ضد العدوان الخارجي ،حيث يرى **الجابري** أن شرط الاجتماع الإنساني، بل شروط بقاءه واستمراره،هو **الوازع** الذي يكون واحد من بني البشر. إذن هو السلطة،التي تحد من نزعة الفرد إلى العدوان، وإثارة النزاع والصراع وبالتالي الفساد الإنساني، فالوازع يحد من النزعة العدوانية لدى الفرد، ويجعل الأفراد يتنازلون عن بعض طبائعهم العدوانية، فمن «أخلاق البشر فيهم الظلم والعدوان بعض على بعض، فمن امتدت عينه إلى متاع أخيه، امتدت يده إلى أخذه إلا أن يرده وازع»[38] ،«ثم إن هذا الاجتماع ،إذا حصل للبشر كما قررناه،وتم عُمران العالم بهم، فلا بد من وازع يدفع بعضهم عن بعض،لما في طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم»[39]، وهنا يرى **ابن خلدون** الوازع إلزاما ضروريا،لإقامة الاجتماع وتحقيق العلاقة السياسية فهو عصب الملك والرئاسة، فلولاه لما وُجدت الرئاسة والملك في الدولة، كما يختلف الوازع من البدو إلى الحضر أي من القبيلة إلى المدينة أو الدولة،« فأمّا المدن والأمصار فعدوان بعضهم على بعض، تدفعه الحُكام و الدولة بما قبضوا على أيدي من تحتهم من الكافة، أن يمتد بعضهم على بعض أو يعدوا عليه فإنهم مكبوحون بحكمة القهر والسلطان عن التظالُم .... وأما العدوان من الذي خارج المدنية، فيدفعه سياج الأسوار، أو يدفعه ذياد الحامية من أعوان الدولة وأما أحياء البدو فيزع بعضهم عن بعض مشايخهم وكبراؤهم بما وقر في نفُوس الكافة لهم من الوقار والتجلة وأما حللهم فإنما يذود عنها من خارج حامية الحي من انجادهم وفتيانهم المعروفين

بالشجاعة فيهم، ولا يصدق دفاعهم وذيادهم إلاّ إذا كانوا عصبه وأهل نسب واحد».[40] يربط ابن خلدون الوازع بالعصبية عند أحياء البدو لأن الوازع الخارجي لديهم، يتم من خلال حامية الحي والفتيان الشجعان، ولا يستطيعون الغلب إلا إذا كانوا عصبية واحدة، حتى يهابهم العدوُ. لذلك فإن **الوازع** هو عصب السلطة،أي الرئاسة لدى **ابن خلدون**،حيث أعنى اهتمامه بالتركيز، في دراسته على علاقة الدولة بمن يهاجمها من الخارج من جهة وبالعصبية من حيث أنها رابطة طبيعية،تشد أفراد حامية الحي وأنجادهم عند دفاعهم، وهنا يُحول الرابطة العصبية،من حيث أنها رابطة اجتماعية تنظم علاقات الأفراد مع بعضهم داخل القبيلة،إلى رابطة سياسية دورها في الدفاع عن الجماعة، كوازع يقهر العدو، فهي تقوم بنفس الدور الذي تقوم به الأسوار والحامية في المدن إذن العصبية تلعب دورا هاما في الحياة السياسية،والمتمثل في اعتبارها وازعا سياسيا، وذلك من خلال الدفاع الخارجي عن القبيلة.وهنا نجد تصنيف **ابن خلدون** للعدوان داخلي (والمتمثل في عدوان الأفراد، مع بعضهم البعض داخل أحياء البدو)،وعدوان خارجي (أي العدوان على القبيلة،أو المدينة من الخارج) يؤدي إلى وازعين، وازع داخلي ووازع خارجي، فالداخلي يتمثل في شيوخ القبيلة، وأما خارجها فهي نفسها الرابطة العصبية ،التي تعتبر وازعا يُدافع خارج القبيلة ضد قبائل أخرى، أما عند الحضر، فوازعهم الخارجي يتمثل في الجند والأسوار والحامية وهنا تصبح العصبية **قوة سياسية** لاعتبارها وازعا دفاعيا.

2- العصبية مصدر للرئاسة بعد دراستها لنصوص المقدمة، إتضح أن **ابن خلدون** يضع ثلاث مؤهلات أو شروط، لابد منها في رئيس القبيلة، وهي النسب الصريح، الشرف أو الحسب والغلبة، إذا توفرت هذه الشروط، يمكن للفرد أن يكون رئيسا. هذا يعني أن منصب الرئاسة ليس بفائز به إلا من كان ذا قرابة دموية قوية، لأنه حتى يكون النسب الصريح متوافرا لابد من هذه القرابة أن تكون ممتدة خلال أجيال في الزمان، مما لا يدع شكا لدى أفراد القبيلة ،في أن المؤهل للرئاسة مرتبط بالقبيلة أبا عن جد وهو **النسب الصريح**:يرى **ابن خلدون** أن الرئاسة تكون في النسب الصريح، أي نسب العصبية، لقوله« إن الرئاسة على أهل العصبية لا تكون في غير نسبهم ».[41]لأن العصبية قد تضم أفرادا خارجين عن نسبها، لا تربطهم بها قرابة الدم وينتمون إلى هذه العصبية عن طريق الحلف، والولاء والجوار، أما أفراد العصبية الصريحين هم الذين تربطهم روابط دموية،هؤلاء من الدرجة الأولى، أما الغير صريحي النسب فهم في الدرجة الثانية، صراحة النسب تعني أن الشخص مؤهل للرئاسة لأن «... كل حي أو بطن من القبائل، وإن كانوا عُصابة واحدة لنسبهم العام،ففيهم أيضا عصبيات أخرى لأنساب خاصة،هي أشد التحاما من النسب العام لهم، مثل عشيرة واحدة أو أهل بيت واحد أو إخوة بني أب واحد،لا مثل بني العم الأقربين أو الأبعدين فهؤلاء أقعد بنسبهم المخصوص ويشاركون ،من العصائب في النسب العام.... والرئاسة فيهم إنما تكون في نصاب واحد منهم، ولا تكون في الكل».[42] فالنصاب المخصوص هو **الأسرة**،التي اتصفت بالخلال الحميدة والشرف والتجلة من طرف أفراد القبيلة ذات النسب الخاص، فالأشخاص اللصيقين بالعصبية بطول المعاشرة وغيرها، لا يمكن أن تتوفر فيهم الرئاسة،لأنهم ليسوا أفراد النسب الصريح. أما عن **الشرف أو الحسب**: فيجب أن يتوفر في صاحب الرئاسة وهو أن يعُد الرجل في أبائه أشرافا مذكورين ينتسب إليهم، ويسميه **ابن خلدون** بالبيت وهو «أن يعد الرجل في أبائه أشرافا مذكورين تكون له بولادتهم إياه والانتساب إليهم تجلة في أهل جلدته، لما وقر في نفوسهم من تجلة سلفه وشرفهم بخلالهم...»[43]،فالرئاسة مجد وأصل المجد العصبية، والعشرة فرع يتمه ويُكمل وجوده وهو الخلال، فالنسب حتى ولو كان صريحا حقيقيا،فلا يكفي وحده للرئاسة، بل لابد من الحسب والشرف، وهو متوارث أبا عن جد والحسب الشريف،معناه التمتع بالخلال الحميدة، التي تخدم الصالح العام للقبيلة،لا يتوفر عليه إلا من كان ذا قرابة دموية قوية، بأفرادها فالدفاع عن مصلحة الأقارب يسبق الدفاع عن أية مصلحة أخرى، بإيعاز من التقاليد القبلية والأحكام الدينية وهؤلاء الأقارب،هم الذين يدفعون المرشح للرئاسة إلى السلطة، ويتحقق له الجاه والرفاهة. والخلال هي ما يخص مصلحة القبيلة،مثل الشجاعة والكرم وعامة التضحية بالنفس والمال وخدمة الصالح العام للعصبية، وتكون الرئاسة معنوية أكثر منها سلطة قاهرة يقول **ابن خلدون** أن الرئاسة هي سؤدد وصاحبها متبوع وليس له عليهم قهر في أحكامه، فالرئيس إذن يحضى بتقدير الجميع واحترامهم،وفي استطاعة كل مرؤوس من الأفراد، أن ينتقد رئاسته بمقدار ما يتقبل الرئيس ذلك ،بقلب رحب بمقدار ما تعظم مكانته في نفوس أفراد عُصبته، إنه معهم وفوقهم في مكان واحد، لأنه يحضى باحترامهم بسبب شرف بيته وهذا ما يميزه عنهم»[44]إضافة إلى شرطا الرئاسة والنسب الصريح والحسب والشرف هناك شرط ثالث وهو **الغلب أو القوة**:فالنسب الصريح والحسب عنصران يهمان في الرئاسة الخاصة، والتي تعني بها رئاسة شيوخ القوم على ذويهم و عشيرتهم أما بالنسبة

للرئاسة العامة، فيجب أن تكون القوة أو الغلب، حتى تخضع القبائل الأخرى لسلطة العصبية القوية لقول: **ابن خلدون** «ولما كانت الرئاسة،إنما تكون بالغلب وجب أن تكون عصبية ذلك النصاب أقوى من سائر العصائب، ليقع الغلب بها وتتم الرئاسة لأهلها ...» [45] ،«لابد في الرئاسة على القوم، أن تكون من عصبية غالبة لعصبياتهم واحدة واحدة، لأن كل عصبية منهم إذا أحست بغلب عصبية الرئيس لهم، أقروا بالإذعان والإتباع»[46].هذا وقع منطقي استقاه صاحب المقدمة ،من ملاحظاته وقراءاته التاريخية ومن الطبيعي أن تضل الرئاسة، في هذا النصاب طالما كانت الغلبة لهم ،إذ لو ابتغاها من هم أقل منهم قوة فإنها لا تتم،فإذا ما ذهبت الغلبة ووهنت المنعة،انتقلت الرياسة إلى غيرهم ممن توفرت لديهم أسبابها وتحققت عندهم مقوماتها.[47]نلاحظ أن **ابن خلدون**، يشترط استعمال الغلب والقوة،لإخضاع القبائل التي تعودت على الرحيل والفوضى وكسب طاعتها، لأن السلطة السياسية تنبني على القوة كمنبع لوجودها،وكمصدر للتنظيم والتمركز والاستمرار،«إن الآدميين بالطبيعة الإنسانية، يحتاجون في كل اجتماع، إلى وازع وحاكم، يزع بعضهم عن بعض، فلا بد أنيكون متغلبا عليهم بتلك العصبية».[48] وتنتقل الرئاسة إلى النصاب القوي دائما،فهي متوارثة من جيل إلى جيل،والنصاب الذي تتوفر فيه الرئاسة،يجب أن يكون قويا، ولما كانت الرئاسة إنما تكون بالغلب، وجب أن تكون عصبية ذلك النصاب أقوى،من سائر العصائب، ليقع الغلب بها وتتم الرئاسة لأهلها، فإذا وجب ذلك تعين أن الرئاسة عليهم لا تزال في ذلك النصاب المخصوص، بأهل الغلب عليهم، إذ لو خرجت عنهم صارت في العصائب الأخرى النازلة، عن عصباتهم في الغلب، لما تمت لهم الرئاسة فلا تزال في ذلك النصاب متناقلة من فرع منهم إلى فرع، ولا تنتقل إلا إلى الأقوى من فروعه. لما قلناه من سرّ الغلب لأن الاجتماع والعصبية بمثابة المزاج في المتكون،والمزاج في المتكون لا يصلُح إذا تكافأت العناصر،فلا بد من غلبة أحدهما،وإلا لم يتم التكوين».[49]فهذا هو سر اشتراط الغلب في العصبية،ومنه تعين استمرار الرئاسة في النصاب المخصوص بها كما قررناه، ويبين لنا **ابن خلدون** أن المزاج في المتكون،لا يصلح إلا إذا تكافأت العناصر فلا بد من غلبة احدهما، وإلاّ لم يتم التكون.إذن فالقوة تدخل دخول العنصر الهام،في التكوين الاجتماعي، لأن لولاها ما تم التكوُن ومعها تظهر مفاجئات عديدة وهي:أ- أنها تُساهم في التكوين،ب-أن القوي يترأس القبيلة.ج - أن الشرعية هي تابعة للقوة فهذا، هو سر الغلب في العصبية، القوة هي عنصر من عناصر العصبية الغالبة. [50] كما أن للأتباع والأنصار دور، في الرئاسة أيضا، لأن بروز شخص معين في الوسط الاجتماعي،لا يتم صُدفة وإنما يأتي بواسطة عصبية من أهله وأصدقائه وحلفائه، إضافة إلى قوة شخصيته ومهاراته وخلاله التي تجعله يعظم ،في أعينهم ويرضون به زعيما، وبهذا يمكنه أن يبلغ هدفه.

رابعا: الحركة التطورية للعصبية

ينظر **ابن خلدون** للمجتمع نظرة تطورية وحركية، هذا ما جعله يعطي لهذا الأخير أعمارا ومراحل يمر بها مثله مثل الإنسان، كما يرى أن للعصبية مراحل هي الأخرى تطورية أو ما نسميها بحركة العصبية، وذلك لأنها تمر بحركة تطورية تبدأ بتشكلها من خلال الروابط الدموية، أي من صلة الرحم والعائلة فتصبح عصبية خاصة حدودها القبيلة، ثم تتسع إلى عصبية عامة من خلال الحلف والولاء والإجارة أو الحماية، لقول **ابن خلدون**«وما جعل الله في قلوب عباده،من الشفقة والنُعرة على ذوي أرحامهم وقربائهم موجودة في الطبائع البشرية، وبها يكون التعاضد والتناصر»[51] هذا يعني أن القرابة الدموية تلعب دورا عظيما في الحياة الإنسانية،لأنها تجعل أفراد القبيلة الواحدة يدافعون عن بعضهم ويتبادلون الشفقة والرحمة، كالمناسبات والأعياد وعند الضراء في حالة خطر خارجي، أو عدوان ضد القبيلة، وهنا يكون للرابطة العصبية دورا مهما يتمثل في:المدافعة والمناصرة ضد العدو أو الخطر المشترك، التعاون والتكافل لتحقيق المصالح سواء الخاصة أو العامةوثالثا دفع الثأر وطلبه وفقا للأعراف والتقاليد البدوية، حيث يكون لكل واحد منهم مطالب ومطلوب للثأر،في نفس الوقت،وهنا نلاحظ مدى تماسك الجماعة داخل القبيلة،لأن **العصبية تكون خاصة** ويعني ذلك أن أفراد القبيلة تربطهم رابطة **القرابة الدموية الأولية** كما يسميها الأنثروبولوجيون ويسميها **ابن خلدون** بالنسب القريب أي أبناء الأب الواحد،تكون العصبية هنا جد قوية لقوة الرابطة الاجتماعية بين الأقارب.أما **العصبية العامة** فهيتقوم على النسب البعيد، لان كل عصبية تتألف من عدة عصبيات خاصة،ولهذا فهي،تقوم على الكثرة داخل الوحدة،ولا تُصبح العصبية قوة سياسية إلا إذا التحمت العصبيات الخاصة المتنافسة،في إطار عصبية عامة واحدة.[52] فالعصبية العامة تربط البطن بسواه،من العصائب ممن يلتقي معه في النسب العام والنعرة أو تصله بشعب من القبائل، والعصبيات تضُم عن طريق الدخالة، وقد تكون بتعبير أدق عصبية مصلحة، حيث نجد قبيلتان أو أكثر أن من مصلحتها أن تتحدا معا لمواجهة موقف طارئ،لا قبل لأحدهما أن تواجه بمفردها ،لذلك

تتعاهد القبيلتان وفق ميثاق خاص،أن تناصر كل منهما الأخرى،وأن تقف معها صفا واحدا ضد العدو المشترك، فالتحالف أو التحزب،يؤدي نفس الوظائف التي تؤديها عصبية القبيلة،في غالبية الأحوال، كمسائل رد العدوان والثأر وما إليها وقد يستمر التحالف لفترات طويلة، قد تمتد لعدة أجيال،بحيث لا يمكن فضه إلا بناءا على أسباب قوية.[53] ولتتوسع الرابطة العصبية وتصبح عصبية عامة يكون ذلك عن طريق،**القهر والغلب، الحلف والولاء،ثم الدعوة الدينية**.هذا يعني أن الرابطة العصبية تمتد وتنمو،بضم عصبيات أخرى أقل منها قوة ومالا وجاها تضُمها إما عن طريق القوة بالقهر والغلبة، أو عن طريق السلم **بالحلف والولاء**، فالعصبية ليست حالة ثابتة، فهي تظهر عند الخطر،وغايتها الملك ولتحقيق ذلك تسعى كل عصبية للقضاء على غيرها،وضمها إليها، فتزداد قوة على قوة ،ثم تبسط سُلطتها وتستمر هذه السلطة مدة زمنية لتُأسس الدولة. تبدو في عامل الغلبة،أولى مراحل توسع الرابطة العصبية كقوة سياسية ،حيث يقول **ابن خلدون** « فلابد في الرئاسة على القوم أن تكون من عصبية غالبة ،لعصبياتهم واحدة واحدة،لأن كل عصبية منهم إذا أحست بغلب عصبية لرئيس لهم،أقروا بالإذعان والإتباع.»[54] «ثم إن القبيل الواحد، وإن كانت فيه بيوتات متفرقة،وعصبيات مُتعددة فلابد من عصبية تكون أقوى من جميعها تغلبها وتستتبعها،وتلتحم جميع العصبيات فيها،تصير وكأنها عصبية واحدة كبرى»[55].فالعصبية القوية هي التي تتطور لتصل إلى الغاية العامة(التحضر والملك والترف).فالغلب إذن يؤدي وظيفة مزدوجة يؤسس الملك،ويقوي العصبية،لأن صاحب الرئاسة بعد أن يتغلب على عصبيات أخرى، يصبح رئيسا على العصبيات التي التفت حول عصبيته، تظهر الرابطة العصبية كقوة مسيطرة قادرة على التغلب.[56]،وتستمر العصبية بالتغلب على غيرها حتى تصل إلى عصبية تكافؤها،وهنا إما أن تقضي واحدة على الأخرى، أو تضُم الواحدة الأخرى، وإذا وصلت بقوتها قوة الدولة وأدركت الدولة في الهرم،لا تجد مانعا للإطاحة بها، فيقول **ابن خلدون**:« إذا حصل التغلب بتلك العصبية على قومها، طلبت بطبعها التغلب على أهل عصبية أخرى بعيدة عنها، فإن كافأتها أو مانعتها كانوا أقتالا وأنظارا،ولكل واحدة منهما التغلب على حوزتها وقومها، شأن القبائل والأمم المتفرقة في العالم وإن غلبتها واستتبعتها التحمت بها أيضا، وزادتها قوّة في التغلب إلى قوتها وطلبت غاية من التغلب والتحكم وأعلى من الغاية الأولى،وأبعد وهكذا دائما حتى تكافئ بقوتها قوة الدولة، فإن أدركت الدولة في هرمها،ولم يكن لها مُمانع من أولياء الدولة أهل العصبيات، استولت عليها وانتزعت الأمر من يدها وصار الملك أجمع لها».[57] يعني هذا أن القهر والغلب يكون بالقوة، لضم عصبيات أخرى بمعنى العصبية القوية تضم العصبيات الأخرى إليها،سواء قبلت أو رفضت،وهذا ما يسميه **الجابري بالتوسع الآلي للعصبية الغالبة**، التي تقوم بامتصاص عصبيات أخرى،القريبة لها أولا ثم البعيدة.أما الحلف أو الولاء معناه،أن يدخل شخص أو جماعة ما في معية شخص آخر،أو جماعة أخرى،وهنا يصبح من دخل في معية أو ولاية غيره،**مولى** له،كما تصبح الجماعةٌ **موالي** لغيرها. ويحدث ذلك بشروط وهي،أن تصبح الجماعة المتولاة جزءا من الفرد أو الجماعة المتولية،بكل مالها من حقوق، وما عليها من واجبات كما لو كان الفرد أو الجماعة أحد الأعضاء الأصليين، للجماعة الجديدة، أو العصبية الجديدة،لدرجة أن المولى ووليه كان كل منهما يرث صاحبه، بمقدار السُدس في البداوة العربية.[58] فالولاء أو الحلف،لا يكون بالقوة مثل القهر والغلب،وإنما يتم برغبة الجماعة وقبولها،بمعنى أن تدخل عصبية،في ولاية عصبية أخرى، برضا وقبولها كل من الطرفين، إضافة إلى الولاء والحلف هناك الإجارة والحماية،وهي أن تطلب عصبية ما، أن تكون في حماية عصبية أخرى تدفع عنها ظلما أو عدوانا،وهنا تتوسع الرابطة العصبية بضمها روابط عصبية أخرى.[59]والعصبيات التي تدخل في الحلف والولاء تصبح وكأنها جزء من العصبية ،التي انتمت إليها، وذلك بالأُنفة، لقول **ابن خلدون**«إذ نعرة كل أحد على أهل ولائه،وحلفه للأُنفة التي تلحق النفس من اهتضام جارها أو قريبها ،أو نسيبها بوجه من وجوه النسب...»[60]،أي يُصبح المنتمي للعصبية بالحلف،وكأنه ينتسب إليها، لقول **ابن خلدون**«....اللُحمة الحاصلة من الولاء مثل لُحمة النسب أو قريبا منها»[61]ثم تأتي **الدعوة الدينية** كعامل ثالث لتوسع العصبية،حيث يعطي **ابن خلدون** للدين،أهمية كبيرة في تشكل العصبية واتحاد أفرادها، لذلك خصص في الفصل الرابع من الباب الثالث عنصرا في«أن الدولة العامة الاستيلاء العظيمة الملك، أصلها الدين،إما من نبوة أو دعوة حق».[62]فيقول:«وذلك أن الملك، إنما يحصل بالتغلب والتغلب، إنما يكون بمعونة من الله في إقامة دينه،قال تعالى:«لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم.»[63]وسره أن القلوب إذا تداعت إلى أهواء الباطل والميل في الدنيا حصل التنافس، وفشا الخلاف وإذا انصرفت إلى الحق ورفضت الدنيا والباطل، وأقبلت على الله اتحدت وُجهتها فذهب التنافس وقل الخلاف، وحسُن التعاون والتعاضد،واتسع نطاق الكلمة لذلك عظمت الدولة».[64]من خلال هذا النص وبلغة ابن خلدون،العصبية إنما تكون بمعونة من الله في إقامة دينه، فالدولة لا تنتشر

على إقليم واسع ولا يطول حكمها،إلا إذا كان إلى جانبها عامل الدين،والذي يعين تلاحم العصبية.والالتحام عنده هو اتفاق الأهواء والأهداف، وهذا لا يحصل إلا بالدين، وعليه فالدعوة إلى الحق أو النُبوة هي بُعد ديني من الأبعاد التي تتداخل في تأليف العصبية،وتركيبها،لان الدين في نظر **ابن خلدون** يؤدي إلى استئصال التنافس«إن الصبغة الدينية ،تذهب بالتنافس ولتحاسد الذي في أهل العصبية، وتفرد الوجهة إلى الحق،فإذا حصل لهم الاستبصار في أمرهم، لم يقف لهم شيء،لأن الوجهة واحدة والمطلوب متساو عندهم، وهم مُستمتون عليه، وأهل الدولة التي هم طالبوها وإن كانوا أضعافهم، فأعراضهم متباينة بالباطل وتخاذلهم لتقية الموت حاصل، فلا يقاومونهم وإن كانوا أكثر منهم بل يغلبون عليهم ويعاجلهم الفناء بما فيهم من الترف والذل».[65]،ومن هنا نجد صاحب المقدمة يوضح على أن الدين،يزود السلطة السياسية بقوة إضافية، أشد بأسا إلى جانب القوة التي تولدها العصبية،وأن الاجتماع الديني،يُضاعف قوة العصبية ويعمل للقضاء على عوامل الصراع،ومثال على ذلك في الجهاد من أجل الدولة، يعتبر واجبا دينيا فهو يرى أن الميل إلى الدنيا يؤدي إلى التنافس،أما الميل إلى الدين يؤدي إلى عدم التنافس،والالتحام لطلب الحق والله، هكذا تعظُم الدولة وتقوى العصبية، التي لا تتوسع في حركتها من خاصة إلى عامة إلا بمُساعدة عامل الدين أو الدعوة الدينية ،كما يسميها صاحب المقدمة،فالرابطة العصبية عند البدو العرب لا يمكنها أن تتطور إلى عصبية عامة جامعة،إلا بالعامل الديني.«فالدعوة الدينية،من غير عصبية لا تتم»[66]لهذا يؤكد **ابن خلدون** أن النبي يجب أن يكون له قوم، يصرفون عنه الأذى، وإلا لن يكون نبيا لأن الأنبياء لا يستطيعون تبليغ دعوتهم،وهم مزعومون فيمكن أن ينصر الله أنبياءه،ولكنه يجعل الأمور تجري بالعادي عند البشر،ويجعل الانتصار بعد تعب. **مثل : ابن القسي** رجل عاش في الأندلس،لانشغال العصبيات المدافعة عنه، عندما استولى الموحدون على المغرب، لم يستطع مقاومتهم لأنه لا تعد لديه عصبية تدافع عنه، ويؤكد أهمية الدعوة الدينية،والعصبية في حديث **النبي صلى الله عليه وسلم** «**ما بعث الله نبيا إلاّ في منعة من قومه**»،كما يرى **جورج لابيكا** في كتابه **السياسة والدين عند ابن خلدون**،أن صاحب المقدمة يؤكد على دور العصبية والدين، إلى حد أنه يربطهما فبلوغ الدعوة الدينية، يخضع للعصبية.و«حجته في ذلك تكرار شرحه للحديث النبوي السابق،**فمنعة** من قومه هي، من علامات الرئيس،الذي تتجلى فيه العصبية كما يفسر **لبيكا** هذا ،على أن **ابن خلدون**،حاول التخلص من مأزق العصبية بالتميز بين عصبية الجاهلية التي أدانها الإسلام والعصبية الإسلامية التي تجمع الناس على الحق وتوحد صفوفهم وتذهب عنهم الأنانية المفرطة».[67]كما أعطى **ابن خلدون** مثالا في التاريخ عن **المهدي ابن تومرت**،الذي اشتهر بالعلم والدين مما ساعده على تسلم زمام الرئاسة، وتأسيس دولة الموحدين، واستمال قبائل المصامدة في دعوته، رغم أنه كان من أهل المنابت المتوسطة فيهم. وإذا تصفحنا مؤلفات **ماكيافيلي** و**فيكو**،نعثر على عبارات متماثلة،وأفكار متشابهة توضح علاقة الدين بالسياسة ونشأة الدولة. يقول **ماكيافيلي** أن المسيحية الحقة ،تخالف ما آلت إليه تأويلات البابوات ويرى في الدين،قوة اجتماعية تردع وتهذب النزوات البشرية،بين الأفراد،فيقول:«إن القارئ الفطن،يستدل من تاريخ روما، على أن الدين نافع لقيادة الجيوش ومساواة، الشعب وتشجيع الأخيار وردع المفسدين.»[68]وهنا نستخلص من حركة الرابطة العصبية،أن هذه المسيرة تستمر ،حتى تنجح أقوى عصبية في إدماج غالبية هذه القوى إليها في قوة واحدة حيث تقوم هذه العصبية القوية في الوقت المناسب، بدور هام سواء في تدعيم نظام الحكم المتمثل في الرئاسة أو في الاستلاء على السلطة،و مع هذا تبقى العصبية تلعب دورا كرابطة اجتماعية سياسية في نفس الوقت وحسب الظروف التي تمر بها.

الهوامش:

1. Francis Farrugia, *La crise du lien social. Essai de sociologie critique*, L'Harmattan, paris, 1993,P22.
2. .عدنان أبو مصلح،معجم علم الاجتماع،دار أسامة المشرق الثقافي،عمانالأردن،2006،ط1،ص261.
3. Le robert,Dictionnaire de sociologie,ed du seuil PARIS,p307et p30

وانظر أيضا:د. جمال معتوق،قراءة نقدية في الروابط الاجتماعية حالة المجتمع الجزائري،فعاليات الملتقى الوطني الرابع لقسم علم الاجتماع،يومي 6و7 نوفمبر 2006،منشورات كلية العلوم الانسانية والاجتماعية،الجزائر 2007-2008.ص255.

4. عبد الحميد لطفي جُمعة ، علم الاجتماع ، دار النهضة العربية،للطباعة والنشر، الطبعة الأولى،لبنانبيروت، 1977،ص40 .
5. . عبد الحميد لطفي مرجع سابق، ص 39
6. . عبد الحميد لطفي مرجع سابق، ص 40
7. .عبد الحميد لطفي، نفس المرجع السابق ، ص 40
8. .نفسالمرجع السابق ، ص 43
9. . أنظر عبد الحميد لُطفي،نفس المرجع السابق، ص 42
10. بيار بونت ، معجم الاثنولوجيا و الانتروبولوجيا ، تر: مصباح الصمد ، المؤسسة الجامعية للدراسة و النشر و التوزيع،لبنان، بيروت، ،2006.ص493.

11. .بيار بونت، نفس المرجع السابق، ص 493
12. بيار بونت، نفس المرجع السابق، ص 494
13. جان وليام لبيار،السلطة السياسية، منشورات عويدات،لبنان،بيروت،1974،ص74،73.
14. محمد بومخلوف، الروابط الاجتماعية و مشكلة الثقة ،في فعاليت الملتقى الوطني الرابع لقسم علم الاجتماع كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية،جامعة الجزائريوم6و7نوفمبر2006،منشورات كلية العلوم الانسانية و الاجتماعية،الجزائر، 2007-2008،ص21.
15. جمال مجدي حسنين ، سوسيولوجيا المجتمع ، دار المعرفة الجامعية،مصر،القاهرة ،2005،ص87.
16. محمدعزيزلحبابي،ابن خلدون معاصرا،تر:فاطمة لجامعي،دارالحداثةللطباعة،لبنان،بيروت،ص13.
17. ساطع الحصري ، دراسات عن مقدمة ابن خلدون، مكتبة الخانجي،مصر ،القاهرة، 1961،ص333.
18. عبد الغني مغربي،الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون،تر:محمد الشريف بن دالي سين ، ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر ،1988،ص113.
19. عبد الرحمان ابن خلدون ،المقدمة ،دراسة واعتناء أحمد الزعبي ، دار الأرقم ابن أبي الأرقم للطباعة و النشر والتوزيع ،لبنان ، بيروت ، ص157.
20. محمد عابد الجابري،العصبية و الدولة –معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي- ،ط3،دارالطليعة للطباعة والنشر ،لبنان،بيروت، 1،1982 ص254.
21. .الحصري ساطع ،مرجع سابق، ص154
22. حامد المنجي ، توظيف مفهوم العصبية في دراسة المجتمع العربي المعاصر ،دار التنمية،تونس ، صفاقص،ط2004،1،ص64.
23. الصغير عمار،الفكر العلمي عند ابن خلدون، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص42.
24. .معن خليل العمر، مرجع سابق،ص127
25. .الحبابي ، مرجع سابق ،ص38
26. .ايف لاكوست،ابن خلدون واضع علم ومقرر استقلال،طبعة بيروت،لبنان،بيروت،1954،ص38
27. . بسيوني رسلان،السياسة و الاقتصاد عند ابن خلدون، دار قباء ،مصر،القاهرة ،1999،ص48
28. Raymond boudan , Dictionnaire de la sociologie, paris,la rousse,page 170
29. بيار بونت ، مرجع سابق ، ص 721.
30. .بيار بونت، نفس المرجع السابق ، ص725
31. محمد حمداوي ، وقائع الملتقى أي مستقبل للأنتربولوجيا في الجزائر، القرابة والسلطة عند ابن خلدون:البذور الجنينية للأنثربولوجيا السياسية،الجزائر، تيميمون،1999،ص36.
32. عبد الرحمان ابن خلدون ،المقدمة ،مرجع سابق ، ص156
33. مُعن خليل العمر ، معجم علم الاجتماع المعاصر ، دار الشروق للنشر و التوزيع ،الأردن ، عمان ، 2000 ص 130.
34. محمد ، نجيب بوطالب،سوسيولوجيا القبيلة في المغرب العربي، مركز دراسات الوحدة العربية ،لبنان،بيروت،ط1، ص65.
35. . حامد المنجي،مرجع سابق، ص65
36. . الجابري،مرجع السابق،ص472
37. .نفس المرجع السابق،ص472
38. .ابن خلدون ، نفس المصدر السابق ، ص156
39. .نفس المرجع السابق ، ص158
40. .نفس المرجع السابق ،ص156
41. .ابن خلدون ،المقدمة ،نقس المرجع السابق، ص160
42. .ابن خلدون، نفس المرجع السابق ، ص 159
43. .نفس المرجع السابق ، ص 164
44. .نفس المرجع السابق ، ص 275
45. . ابن خلدون ، نفس المرجع السابق ، ص 276
46. .نفس المرجع السابق ، ص160
47. الشكعة مصطفى ،الأسس الإسلامية في فكر ابن خلدون و نظرياته ، الدار المصرية اللبنانية ، الطبعة الأولى، القاهرة ،مصر، 1986، ص60.
48. محمد عزيز لحبابي ،ابن خلدون معاصرا، تر: فاطمة الجامعي ، ط1984،1،ص41وانظرأيضا , Lababi , A, Ibn khaldoun ,contemporain l'armassions . 1987page75
49. . ابن خلدون ،المقدمة ،نفس المصدر السابق ، ص160
50. . قربان مُلحم ، خلدونيات السياسة العمرانية ، المؤسسة الجامعية للدراسات ،1984،ص66،60
51. .ابن خلدون،نفس المصدر السابق ، ص157
52. .الجابري،نفس المرجع السابق،ص460
53. صلاح مصطفى الفوال،علم الاجتماع البدوي، دار النهضة العربية،مصر،القاهرة، بدون سنة،ص225.
54. .ابن خلدون ،المقدمة،نفس المصدر السابق، ص168

55. .ابن خلدون ، نفس المصدر السابق ، ص168
56. مصباح عامر، علم الاجتماع الرواد و النظريات، دار الأمة للطباعة و النشرو التوزيع، الطبعة الأولى، الجزائر، برج الكيفان ،2005.ص31.
57. .ابن خلدون ،نفس المصدر السابق، ص169
58. .الجابري،نفس المرجع السابق،ص448
59. . الفوال،نفس المرجع السابق،ص225
60. .ابن خلدون،نفس المرجع السابق ، ص157
61. .نفس المرجع السابق ، ص156
62. . نفس المصدر السابق، ص188
63. . نفس المصدر السابق، ص188
64. . نفس المرجع السابق ، ص188
65. .نفس المرجع السابق ، ص 189
66. .ابن خلدون ،المقدمة ،نفس المصدر السابق، ص189.
67. Labica, Géorges, politique et religion chez ibn khaldoun,s.n.e.d,1980,page,53.

. رسلان،السياسة و الاقتصاد عند ابن خلدون، مرجع سابق،ص22